أعمال التصوير الجدارى فى "كنيسة المهد" بـ"بيت لحم" بين القيمة التاريخية وتفرد المؤثرات الجمالية

محمد عبد السلام عبد الصادق محمد هلال

أستاذ تاريخ الفنون بقسم التصوير - كلية الفنون الجميلة- جامعة الأسكندرية

Submit Date: 2024-08-08 01: 19:58 | Revise Date: 2024-11-26 21:39:22 | Accept Date: 2024-11-27 07:07:24

DOI:10.21608/jdsaa.2024.310740.1422

ملخص البحث:-

كنيسة المهد" بمدينة "بيت لحم" هى أقدم الكنائس التى ضمت الشعائر الدينية المسيحية بشكل يومى، لها مكانة تاريخية متفردة، حيث كانت القديسة "هيلانة" ، والدة "قسطنطين الأول" (أول إمبراطور رومانى يعلن اعتناقه للمسيحية) صاحبة الفكرة، وقد حوت الكثير من الجداريات التى ألهمت الفنانين عبر عصور تالية، وامتدت آثارها- من حيث الخصائص الجمالية والحلول التشكيلية المجردة لمفردات وعناصر الطبيعة- إلى أعمال فنية سواءا فى العمائر المسيحية أوالإسلامية. مؤخرا شهدت الكنيسة عمليات للترميم وجهت أنظار العالم إلى ماتحوى من آثار فنية ، هنا تتحدد مشكلة البحث فى محاولة الوقوف على القيمة التاريخية للكنيسة ، مع إجراء دراسة تحليلية للقيم التشكيلية والمضمون الرمزى الذى تحويه الأعمال الجدارية بالكنيسة، يهدف البحث إلى إبراز أهم التأثيرات المتبادلة بينها وبين أعمال مناظرة فى الكنائس والعمارة الإسلامية، والوقوف على أهم النقاط الخاصة بالتقنية الأصلية أو تلك التى تمت خلال أعمال الترميم فى العصر الحديث ، وعلاقتها بإبراز القيم الجمالية للأعمال موضع البحث، فى سبيل تأصيل دور التراث الفنى لحضارات الشرق الأدنى. هنا يفترض الباحث أن الجداريات الموجودة بالكنيسة احتوت حلولا تشكيلية تعكس نضج شخصية الفنان آنذاك ، على الرغم من كونها واحدة من أقدم الكنائس تاريخيا ، علاوة على وجود تأثيرات متبادلة بين القيم التشكيلية الموجودة بها وبين العديد من الجداريات فى أماكن أخرى ، بعضها ينتمى للعمارة الإسلامية، كما أن أعمال الترميم أضافت مؤخرا كثيرا من القيم الجمالية، مع الحفاظ على أصالة المدلول، تكمن أهمية البحث فى إبراز القيم التاريخية الجمالية لجداريات الكنيسة ، أما حدود البحث زمانيا فتمتد من القرن الرابع الميلادى وحتى العصر الحديث.

الكلمات المفتاحية:-

كنيسة المهد"- مدينة "بيت لحم"- التصوير الجدارى- الفسيفساء- مدرسة "كوكينوبافوس".

المقدمة :

تعد "كنيسة المهد" بـ"بيت لحم" أقدم الكنائس التى احتضنت الشعائر الدينية المسيحية بشكل يومى ، هى كنيسة ذات مكانة تاريخية متفردة، حيث بدأ بناؤها عام ٣٣٩م بناءا على رغبة القديسة "هيلانة " (248- 330 م)"Flavia Julia Helena" ، والدة "قسطنطين الكبير " Flavius Valerius Aurelius Constantinus " (272-337) م صاحب المنشور التاريخى عام ٣١٣م "منشور ميلانو" ، والذى قضى بإنهاء اضطهاد المسيحيين ، وقد حوت الكنيسة الكثير من الأعمال الفنية الجدارية التى ألهمت الفنانين عبر عصور تالية ، وامتدت آثارها- من حيث الخصائص الجمالية والحلول التشكيلية المجردة لمفردات وعناصر الطبيعة- إلى أعمال فنية عديدة لاحقا ، ومن هنا يمكننا القول أن "كنيسة المهد" هى واحدة من أهم آثار العمارة المسيحية على مستوى العالم ، ومرجع ذلك إلى عدة عوامل أهمها :

أولا : بُنيت الكنيسة فوق البقعة التى شهدت ولادة السيد المسيح عليه السلام ، وذلك قبل أن يتم تدميرها خلال الثورة السامرية عام ٥٢٩م، ليعيد إقامتها وتوسعتها ، حيث تم العثور على طبقة من الرماد والخشب المحروق فوق أرضيات الفسيفساء ، الأمر الذى يجعل منها أثرا شاهدا على أحداث وتحولات تاريخية هامة.

ثانيا : تحوى الكنيسة عددا من الأعمال الفنية البديعة ، والتى ساهم فى إنتاجها عدد من أمهر الفنانين الذين كانت لهم بصمات واضحة على العصر ، حتى أن المصادر أشارت إى مدى التشابه بين السمات والخصائص الجمالية المشتركة بين الجداريات داخل كنيسة "بيت لحم" وأعمال مناظرة فى "روما" و"القسطنطينية."

ثالثا : حوت الأعمال الفنية داخل الكنيسة حلولا زخرفية مميزة اعتمد الفنانون فيها على القيم المجردة لعناصر الطبيعة من نباتات وأشجار وأشكال هندسية ، مما جعلها مصدرا هاما لإلهام الفنانين والصنّاع فى عمارة العصور الإسلامية.

أولا : بين نشأة الكنيسة وإعادة إحيائها فى العصر الحديث :

فى عام ٣٢٥م أشارت القديسة "هيلانة" والدة "قسطنطين الكبير" بضرورة بناء كنيسة فى الموضع الذى شهدت أنه موضع صلب السيد المسيح (عليه السلام) ، كان "ماكاريوس "Macarius" "أسقف مدينة "أورشليم" (القدس) قد نقل رغبة الإمبراطورة خلال المجمع المسكونى الأول فى "نيقية" عام ٣٢٥م لبناء هذه الكنيسة ، وبناءا على مشورة "ماكاريوس" شرع "قسطنطين" فى تشييد الكنيسة تحت إشراف أسقف المدينة (المخلص) ، شيدت الكنيسة على الطراز البازيلكى (وهو النظام المتبّع فى بناء الكنائس فى الجزء الشرقى من الإمبراطورية البيزنطية ويقوم على وجود بناء مستطيل ممتد عبر ثلاث ممرات) ، للبازيليكا صحن كبير وخمسة أجنحة واسعة وقاعتين مستعرضتين، تحتها مغارة المهد، ولها طرف يطل على قاعة مثمنة الأضلاع بسقف مخروطى ، وأربعين عمودا فوقها حائطان ارتفاعهما ١٠ أمتار وفوقها ١١ نافذة تحيطها من كل جهة ، وعلى جدران الكنيسة توجد بقايا الفسيفساء التي كانت تزينها وأرضيتها في القرن الـ١٢، والتي ترجع للفترة البيزنطية الأولى (شكل ١).

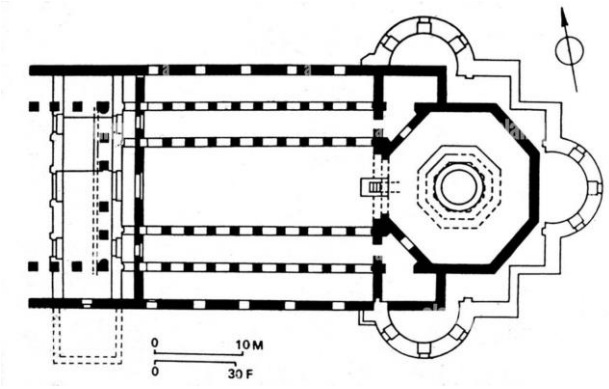

(شكل ١) مخطط كنيسة المهد فى مدينة "بيت لحم"
المصدر : https://www.alamy.com/church-of-the-nativity- 2024

وتحوى الكنيسة اليوم أربعة مزارات هامة هى : "مغارة الحليب" ، وهى الملجأ الذى يقال أن السيدة "مريم العذراء" لجأت إليها أثناء هروبها بطفلها وبصحبة "يوسف النجار" من مطاردة الرومان إلى "مصر" ، "كنيسة حقل الرعاة" ، وهى مغارة أسفل الأرض يمكن الوصول إليها عبر عشرين درجة ، و"تروى المصادر المسيحية أنها كانت مأوى لبعض الرعاة الذين كانوا أول من بشرهم الملائكة بمولد "المسيح" عليه السلام ، "كنيسة القديسة كاترين ، وهى من ممتلكات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية داخل "كنيسة المهد" ، "كنيسة الروم الكاثوليك" والتى تم تدشينها عام ١٩٦٤م ، "كنيسة السريان الأرثوذكس" ، تعد هذه الطائفة ثالث أكبر طائفة مسيحية فى مدينة "بيت لحم" ، وتم تدشينها عام ١٩٢٨م.(Cohen- 2011-p 93)

بين عامى ٤٨٤ و٥٧٣م اندلعت عشرات الثورات التى قام بها السامريون (طائفة يهودية) ضد الإمبراطورية البيزنطية ، قوبلت هذه الثورات بأعمال قمع شديدة الوحشية ، أدى هذا العنف المتبادل إلى إلحاق أضرار بالغة بالكنيسة (Kohen-2007-26) ، إلى أن جاء الإمبراطور "جستنيان الأول" (٤٨٣- ٥٦٥م) ليقوم بالعديد من أعمال الترميم بالكنيسة ، وقد ذكر المؤرخ "بروكبيوس القيسرانى " (500- 560 م)"Procopius " فى مؤلفه الموسوعى De " Aedificiis" (بمعنى "من المبانى") إلى "إعادة بناء جدران هامة فى بيت لحم على يد جستنيان" ، لكنه لم يشر صراحة إلى أن "جستنيان" قد أعاد تشييد بناء "كنيسة المهد" ونظرًا لأهمية الكنيسة الواضحة، يبدو من المحتمل أن يكون الصرح الجستنيانى قد تم تشييده بعد الانتهاء من عمل "بروكوبيوس" ، ولم يكن إغفال عمل "جستنيان" متعمدا.(Bacci- 2017- p65) .

استمر العمل فى ترميم وتزيين الكنيسة خلال قرون تالية حتى عام ١١٦٩م ، حيث تم الانتهاء من الأعمال الجدارية المنفذة بالفسيفساء وبين عامى ٢٠١٥ و٢٠١٦م بدأت أعمال الترميم الحديثة من خلال شركة إيطالية ، حيث بدأ فريق العمل بإصلاح السقف ، ثم تنظيف الحجارة وأخيراً ترميم الفسيفساء.

(شكل ٢) أثناء إجراء بعض أعمال ترميم الشركة الإيطالية لفسيفساء "كنيسة المهد"

المصدر : https://www.pallasweb.com-2024

ثانيا : عمارة الكنيسة إنشائيا وجماليا :

من المثير للاهتمام أن عتبة الصحن كانت مصنوعة من خشب القرن السادس الميلادى ، والذي تم اكتشاف أنه يحتوى على تطعيمات زخرفية ، تحتوى الكنيسة على خمسين عمودًا من الحجر الجيرى البلورى الأحمر ، منها اثنان وثلاثون عمودا مزينة برسوم شمعية (شكل ٣) ، وبالإضافة إلى ذلك هناك عشرة تيجان بدون أعمدة أو قواعد ، جاءت الأعمدة من محجر محلى، ومن المعروف أن الحجر الجيرى الأحمر الذى ينتشر فى مدينة "القدس" يتسم بسهولة تشكيله وتصلبه بعد القطع مباشرة ، لذلك لم تكن هناك حاجة لاستيراد الرخام الأبيض البروكونيزى أو غيره من الرخام الملون إلى الأراضى المقدسة لأن الحجر الجيرى فى "القدس" يأتي بألوان عديدة ، وكان يتم إنتاجه في المحاجر الإمبراطورية المملوكة للدولة. (Jerome (Murphy-O'Connor-2008- p229

(شكل ٣) رسم بملونات شمعية على أحد الأعمدة بكنيسة المهد- "بيت لحم"

المصدر : https://www.pallasweb.com- 2024

كان السقف مصنوعًا من خشب الأرز والبلوط والسرو والصنوبر، تم جلب الصنوبر من جبال الألب الإيطالية ، وتم حصادها وطحنهما ونقلها إلى "بيت لحم" ، وقد استخدم البيزنطيون الصنوبر- بشكل خاص- فى بناء أسقف "القسطنطينية" ، حيث يتميز بجذوع أشجاره الطويلة والمستقيمة (قد يصل طول الجذع إلى ١٠٠ قدم) ، علاوة على خفة وزن هذه الجذوع ومتانتها فى الوقت نفسه ، يحتاج الصنوبر إلى إزالة كل عصارته أثناء الطحن ، تم العثور على نقوش على العوارض الخشبية ، ويبدو أن إحداها عبارة عن نوتات موسيقية على شكل ريش الطاووس.(Roth-1993-279) .

منذ عام ١١٣٠م كان هناك خطة لترميم وتجديد الكنيسة ، وذلك مع إضافة لوحات القديسين إلى أعمدة الصحن ، حيث كان يعلو الأعمدة سابقًا نقشان يتضمنان إهداءا ، أحدهما باللاتينية والآخر باليونانية ، يخبرنا النقشان أن العمل قد تم على يد الراهب وفنان الفسيفساء "إفرايم "Ephraim" "بأمر من الإمبراطور "مانويل الأول كومنينوس" "Manuel I Komnenos" (١١١٨-١١٨٠م)، كما يرد فى النقوش اسم لفنان آخر باللغة السيريانية هو "باسيليوس الشماس " Basil the Deacon " "، على يسار أحد الملائكة ضمن موكب الملائكة "لقد صور باسيليوس الشماس هذا-Roth-1993) ". p283).

يلاحظ أن موكب الملائكة قد تكرر فى اللوحة المذبح العالى Pala d'Oro المنفذة بتقنية الميناء فى كاتدرائية "سان ماركو" فى "فينيسيا"، كما هو موضح (شكل ٤) و (شكل ٥) ، وقيل أن هذه الحلول التشكيلية قد تم ابتكارها في كنيسة "البانتوكراتور الكومنينية" فى "القسطنطينية" (وكان الكومنينيون هم أبناء السلالة التى حكمت الإمبراطورية البيزنطية وأوقفت تدهورها السياسى بين عامى ١٠٨١م و١١٨٥م) ، ويمكن رؤية جميع الأشكال والزخارف ضمن ما يسمى بمدرسة "كوكينوبافوس" Kokkinobaphos school" (وهو اسم أطلق على فنان منمنمات بيزنطية أغلب تفاصيل حياته لازالت مجهولة) ، من الممكن أن تكون تصميمات الفسيفساء قد تم إجراؤها في ورشة عمل "كوكينوبافوس" وتم إرسالها مع فنان مشرف، ربما يكون "إفرايم" نفسه ، ويمكن رؤية نسخ مكررة من الزخارف الموجودة فى لفائف الأقنثة من الزهور والطيور والوحوش فى أناجيل "ثيوفانيس" وأناجيل "يوحنا الثانى" التى تم إنتاجها للعائلة الإمبراطورية. (شكل ٦) و(شكل ٧) (Anderson-1982-p88)

(شكل ٤) تفصيلية من فسيفساء موكب الملائكة فى "كنيسة المهد"- "بيت لحم"

المصدر : https://socratesjourney.org-2024

(شكل ٥) تفصيلية من مينا المذبح العالى بكاتدرائية "سان ماركو"- "فينيسيا"- ٩٧٦م

المصدر : https://www.meisterdrucke.ie/fine-art-2024

(شكل ٦) تفصيلية من زخارف فسيفساء "كنيسة المهد"- "بيت لحم"

المصدر : https://www.pallasweb.com- 2024

(شكل ٧) تفصيلية من إنجيل "يوحنا الثانى" توضح الأثر الممتد لحلول الزخارف النباتية- ١١٢٢م

المصدر : https://www.pallasweb.com- 2024

ثالثا : فسيفساء كنيسة المهد تقنيا وجماليا

فى الأصل تم تزيين صحن الكنيسة والحنية بالكامل ، ولحسن الحظ، تم رسم الفسيفساء فى عام ١٦٩٣، مما ساعدنا على فهم المخطط الكامل ، يُعتقد أن "إفرايم" هو الذي قام بعمل الفسيفساء فى الجوقة، وأن "باسيل" قام بعمل صحن الكنيسة، بينما قام فنان ثالث بعمل الجناحين ، كان "إفرايم" فنانًا بيزنطيًا أرسله "مانويل" من "القسطنطينية" ، وقد برز اسمه لأنه يظهر في الحنية،بينما كان "باسيل"من أهل"سوريا" ، ومن الممكن أن يكون من سكان "بيت لحم" أو "القدس" ،إذ جاء العديد من المسيحيين السريان من الشمال وعاشوا في مواقع الحج هذه. (Bacci- 2017- p69).

أقيمت صورة "مانويل" فى عدة أماكن فى زخرفة الكنيسة بما فى ذلك الهيكل، أهم مكان فى الكنيسة بعد "مغارة المهد" التى كانت أسفل الكنيسة ، يعود تاريخ الفسيفساء إلى ثلاث سنوات فقط بعد استضافة "مانويل" الجلسة الافتتاحية بقصر "القسطنطينية" الكبير، حيث نوقشت كلمات المسيح "الآب أعظم مني" (يوحنا ١٤: ٢٨) ، ومعناها اللاهوتي بالنسبة للأرثوذوكس المسيحيين، لقد أمر "مانويل الأول" بنحت أعمال المجلس على ألواح ضخمة من رخام بروكونيسى ووضعها على أعمدة من الرخام السماقى فى صحن "آيا صوفيا" ، بطريقة تلاءم فسيفساء كنيسة المهد مع مساعى"مانويل" الروحية والسياسية (Madden-2012- p150)، تتضمن فسيفساء الصحن صور مجالس الكنيسة التى شاركت فى تحديد طبيعة المسيح.(شكل٨).

(شكل ٨) جانب من فسيفساء الصحن داخل "كنيسة المهد" توضح صورا توثق لمجالس الكنيسة التى شاركت فى تحديد طبيعة المسيح

المصدر : https://www.yiscaharani.com- 2024

تشير المصادر إلى أنه كانت هناك العديد من كرات الرصاص المدمجة فى الفسيفساء ، إلا أنها فقدت نتيجة إتلاف متعمد على يد بعض المتعصبين الإسلاميين ، تعرض الملاك أعلاه لأضرار ، كما أصيب وجهه بطلقات حربية تركية تم الإبلاغ عنها في أواخر القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين (شكل ٩) ، وورد أن صور السيدة "مريم" العذراء فقط هى التى بقيت سليمة ، بسبب احترام وتبجيل المسلمين لها بشكل كبير. ((Roth-1993-p290)، أثناء أعمال الترميم التى تمت بين عامى ٢٠١٥ و٢٠١٦م تم استعادة وجها مفقودا بالكامل (تقريبا) لأحد (شكل ٩) ، إلا أن هناك خطأ واحدا صغيرا، وهو أن الخط الموجود أسفل العين اليمنى يسير فى الاتجاه الخاطئ خلافا لما تم التعارف عليه فى سمات الفن البيزنطى (شكل ١٠) ، إلا أن هذا الخطأ البسيط لم يقلل من قيمة المعالجة ، لا سيما

وأن منطقة الظل جوار الأنف تم تأكيدها بحيث لم يعد للخط الأهمية ذاتها ، بمعنى آخر.. فإن المعالجة اللونية (الأكثر نضجا وارتباطا بالتقاليد الأكاديمية للتجسيم) قد قللت من القيمة الخطية التى كان يحرص عليها الفنان البيزنطى (شكل ١١).

(شكل ٩) تفصيلية توضح التلفيات التى أحدثها العثمانيون

المصدر : https://www.pallasweb.com- 2024

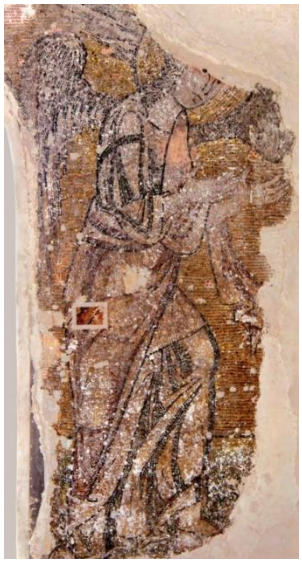

(شكل ١٠) تفصيلية توضح مدى التلف الذى اصاب وجه أحد الملائكة

المصدر : https://www.pallasweb.com- 2024

(شكل ١١) تفصيلية توضح مدى ما بلغته أعمال الترميم من استعادة الأجزاء المفقودة من الجدارية

المصدر : https://www.pallasweb.com-

أعلاه يمكن لنا للرؤية خط أسود قوى يفصل العشب الأخضر عن الخلفية الذهبية، على الرغم من أن تجاور اللون الأخضر والذهبى يقلل من قيمة الأحجار الذهبية ، إلا أن المشهد حوى أعشابا مجهزة بنباتات وأزهار كثيفة غير مألوفة ، كما أنها تختلف فى كل ملاك عن الآخر، كما تم اكتشاف ملاك بين النافذتين الرابعة والخامسة من الجانب الشمالي مختبئًا تحت الجص الذى تم تلطيخه عام ١٨٤٢م (Cohen-2011-p103)،تعرضت صورة الملاك لأضرار بالغة حتى أعادته أعمال الترميم إلى سابق عهده ، حيث صار من الممكن للمشاهد أن يرى النسب الأنيقة والتأثيرات الكلاسيكية فى الفن الكومنينى.

الملائكة التى يبلغ طولها ٨ أقدام مبهجة وترقص فى موكب نحو الحنية ، هناك تنوع كبير فى أوضاعهم ، وأرديتهم مصممة بحساسية، كما تم رسم شخصياتهم بإتقان بوجوه مشرقة ومُصممة بلطف ، الملائكة ذات الأرجل المفتوحة -الرجل اليسرى إلى الأمام- أكثر جاذبية من تلك ذات الأرجل المغلقة ، ربما تشارك فنانان مختلفان فى رسم الملائكة بالتناوب الواحد تلو الآخر ، بإمكان المشاهد- أيضا- أن يرى اختلافًا فى رسم الشعر وتشكيل الوجوه وفى الريش الخفيف للأجنحة ، بعض الملائكة ينظرون إلى المشاهد والبعض الآخر يلتفت بنظرته بعيدا ، كما يلاحظ وضع قطع الفسيفساء الذهبية بزاوية بحيث تعكس الضوء إلى الأشخاص الموجودين في صحن الكنيسة لتعكس تألقا مميزا ، (شكل ١٢) ، يمكن مقارنة شخوص فسيفساء "كنيسة المهد" بأعمال الفسيفساء فى كنيسة "دافنى" خارج "أثينا" ، والتى تم هدمها وإعادة بنائها بالكامل فى نهاية القرن التاسع عشر ، (شكل ١٣).

(شكل ١٢) جزء من تكوين فسيفساء الملائكة فى "كنيسة المهد"

المصدر : https://www.alamy.com/stock-photo/church-of-nativity-2024

(شكل ١٣) تفصيلية من فسيفساء الحنية بكنيسة "دافنى"- أثينا- توضح مدى التأثير الواضح لفسيفساء "كنيسة المهد" فيما يتعلق بالحلول التشكيلية ومعالجة الشخوص

المصدر : https://www.pallasweb.com- 2024

يمكن كذلك ملاحظة كم كبير من الزخارف المعمارية والأرابيسك فى الفسيفساء ، وهناك العديد من المذابح المصورة (شكل ١٤) ، ومن الممكن أن تكون هذه الزخرفة متأثرة بالفسيفساء الموضوعة فى قبة روما عام ٦٩١ م ، وكذلك يتضح وجود تأثيرات متبادلة مع الفسيفساء الموجودة على واجهات الجامع الكبير بدمشق عام ٧٠٦م (شكل ١٥)، ولعل فسيفساء "كنيسة المهد" ماهى إلى "نسخ مجانية" من الفسيفساء التى وضعها "مانويل" فى القسطنطينية ، يُسجل أن فنانًا سوريًا يُدعى الراهب الرسام الدمشقى "توما" قام بوضع الفسيفساء فى كنيسة "القيامة" والتى تم الانتهاء منها عام ١١٤٩، أي قبل ٢٠ عامًا من الفسيفساء فى"كنيسة المهد" (Kühnel -2019-p34).

(شكل ١٤) تفصيلية من فسيفساء "كنيسة المهد" تجسد أحد الهياكل

المصدر : https://purpurpurpur.co.uk- 2024

(شكل ١٥) تفصيلية من فسيفساء الجامع الكبير بـ"دمشق" توضح عناصر معمارية أشبة بالهيكل المقدس

المصدر : https://purpurpurpur.co.uk-2024

من الزخارف المثيرة للإعجاب أيضا شريط كبير من الأقنثة الملتفة يغلف صحن الكنيسة ،يتسم هذا الشريط الزخرفى بالكثير من الحيوية بالتفافات وحداته وتوريقاته التى تنتهى برأس ذئب أو تحيط بكأس ، أو تتبع جسد أرنب ، الأقنثة هنا تُظهر إبداعًا كبيرًا فى أنماطها (سبق عرضها فى شكل ٦) ، كان هذا الشكل قديمًا جدًا فى زمن "مانويل"، ويمكن مشاهدته فى أماكن مثل أقواس صحن الكنيسة والغرف السرية لـ"آيا صوفيا""Hagia Sophia" التى تم تزيينها فى القرن السابع الميلادى (شكل ١٦) ، كما تم تزيين كنيسة "القديسة ماري بيلاشيرنى""St. Mary Blachernae" فى "القسطنطينية" بنفس الوحدة الزخرفية ، (شكل ١٧).

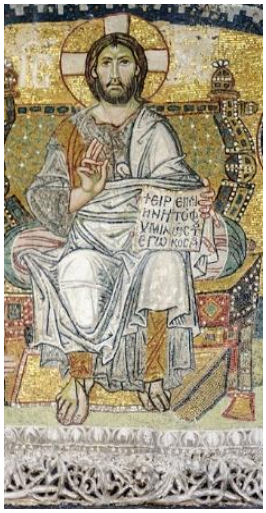

(شكل ١٦) تفصيلية من فسيفساء الحنية فى "آيا صوفيا" تظهر فى أسفلها زخرفة الأقنثة منفذة بالنحت البارز

المصدر : https://tinaboesch.com- 2024

(شكل ١٧) تفصيلية من فسيفساء بكنيسة "القديسة ماري بيلاشيرنى" تظهر توظيف نبات الأقنثة بنفس المعالجة الزخرفية المتكررة

المصدر : https://www.pallasweb.com- 2024

يمكن للزائر اليوم أن يرى كيف تظهر جميع الشخصيات الرئيسية فى الفسيفساء بالحجم الطبيعى ، بما فى ذلك الملائكة أثناء عملهم، حيث كان الفنانون قادرين على الحكم على حجم العمل مقارنة بحجم أجسادهم، ويُعتقد أن الفنانين استخدموا قياسات ثابتة وبوصلات دائرية لتخطيط نسب الأشكال ، وتذكر المصادر أنه قد تم تصنيع معظم قطع الزجاج الجديدة للمشروع، ولكن كان هناك خليط من المكعبات المعاد استخدامها (Alessandri- 2020-p22).

هناك مجموعة من صور القديسين تمتد على جانبى صحن الكنيسة،وهنا نلاحظ وجود أربعة ألوان مختلفة من الهالات، الذهبى والأحمر والأزرق والأخضر ، نقوشهم هنا مكتوبة باللاتينية (شكل

١٨) ، وكان هناك فى الأصل اثنان وأربعون قديسا على كل جانب. أهم ما يميز الشخوص هنا هو ذلك التنوع المذهل فى الصور والمعالجات ، كنظرات الأعين ، تعبيرات الفم ، لون وشكل اللحى والشعر ، حركات الأذرع وإشارات الأكف ، وذلك كله خلافا لما هو متعارف عليه من "نمطية" التناول التشكيلى فى فنون العصور الوسطى (شكل ١٩) ، ولا يوجد دليل على التكرار كما هو الحال فى شخصيات الشهداء على جانبالمسيح فى فسيفساء "سان أبوليناري نوفو""Sant'ApollinareNuovo"فى"رافينا" "Ravenna" بـ"إيطاليا" (شكل ٢٠).

(شكل ١٨) من فسيفساء "كنيسة المهد" حيث يظهر عدد من القديسين بأوضاع وتعبيرات متباينة

المصدر : https://www.pallasweb.com- 2024

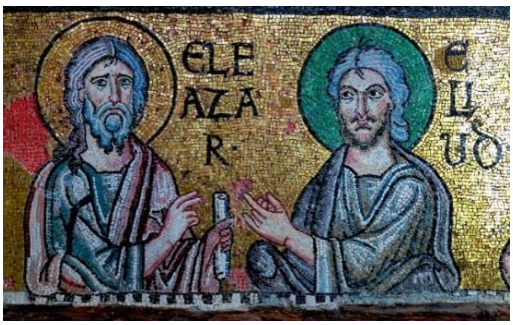

(شكل ١٩) تفصيلية توضح اختلاف تعبيرات الوجوه والأعين
المصدر :https://www.pallasweb.com- 2024

(شكل ٢٠) تفصيلية من فسيفساء "سان أبوليناري نوفو"- إيطاليا

المصدر : https://www.pallasweb.com- 2024

يعرض (شكل ٢١) لقطة مقربة لمشهد "توما""Thomas" (المتشكك) مع المسيح ، إن تصوير شخصية مثل هذه من وضع جانبى، فى الوقت الذى تفتقر فيه إلى رمز الهالة المقدسة ، هو أمر غير معتاد فى الفن البيزنطى ، لكن فنانى"مانويل" كانوا سيصنعون له العديد من الفسيفساء العلمانية فى قصوره ، صورت معظم فسيفسائه العلمانية من عهده أحداثًا تاريخية مثل المعارك (Kühnel -2019 p37).، بإمكاننا أيضا أن نرى تجسيد العين فى ذلك الوضع الجانبى بصورة كاملة كمؤثر شرقى متجذر فى رسوم حضارات الشرق الأدنى.

ينقل العمل واقعة وردت فى "إنجيل يوحنا" حول القصة الشهيرة للقديس "توما" الذى شكك فى قيامة المسيح ، تخبرنا القصة كيف طلب الرسول دليلاً مادياً على قيامة المسيح حقاً من بين الأموات، وهكذا.. وبعد ثمانية أيام من قيامته ، ظهر المسيح بشكل خاص لإقناع تلميذه المتردد ، أدت شكوك "توما" حول القيامة إلى أن يصبح معروفًا باسم "توما المتشكك" "Doubting Thomas"، بتأمل باقى شخوص المشهد سنلاحظ مدى صدق الحالة التعبيرية التى أراد الفنان أن ينقلها، فوجوه الرسل الذين يحيطون بالمسيح تنقل مشاعر الألم والحزن ، تتنوع أوضاع الوجوه واتجاهات النظرات ، فى مقابل النظرة الجامدة التى ترتسم فى عين شخصية "توما" ، هذه الحالة التعبيرية العالية تزيد قيمة العمل ، وتجعل فحواه أكثر عمقا وتأثيرا ، وحين ينتقل المشاهد بين الحركة التى تحدثها أوضاع الأطراف والأيدى يجد نفسه مستغرقا فى شعور بالاضطراب والقلق البادى على الوجوه ، وعلى الرغم من كم الزخارف والعلاقات الخطية المركبة التى تحدثها تنسات القماش بخطوطها المنحنية والهندسية لكن تظل "لغة الوجوه" هى مركز الاهتمام الذى يجذب الأنظار ناقلا الأحداث بصدق ، كما نلاحظ هنا اختفاء الهالات المقدسة من فوق رؤوس القديسين ، وهو يعد تقليدا غريبا وجريئا فى التصاوير الدينية خلال هذا العصر ، (شكل ٢٢).

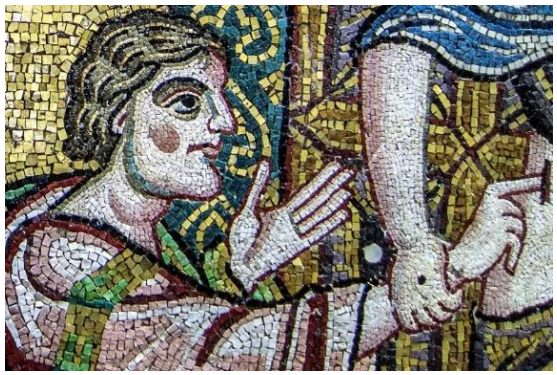

(شكل ٢١) تفصيلية من فسيفساء "كنيسة المهد" تصور "توما" (المتشكك) وهو يتحقق من موضع إصابة المسيح.

المصدر :https://www.pallasweb.com- 2024

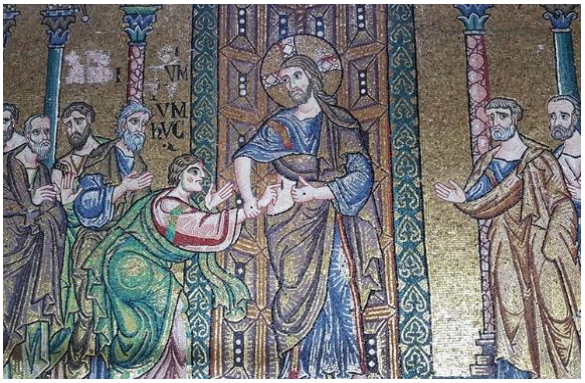

(شكل ٢٢) تفصيلية من فسيفساء "كنيسة المهد" بـ"بيت لحم" تمثل وقائع ظهور المسيح للرسوم "توماس" (المتشكك)

المصدر :https://www.pallasweb.com- 2024

علاوة على كل ما أشير له من قيم تعبيرية وتشكيلية ، يظل بإمكان المشاهد ملاحظة التنوع الرائع فى الألوان في الفسيفساء الزجاجية ، ومن الممكن أن تكون المكعبات الزجاجية مصنوعة محلياً فى فلسطين أو مستوردة من "القسطنطينية" ، يتطلب إنتاج الزجاج كميات هائلة من الخشب للأفران ، لم تكن "القسطنطينية" تعاني من نقص فى الخشب ، فى حين أنه ليس لدينا معلومات كافية حول كمية الخشب التى كانت متوفرة آنذاك حول "بيت لحم" ، لكن على أية حال فقد كان من الممكن استيراد الخشب.(Alessandri- 2020-p35)

تم نفخ الزجاج إلى أقراص مسطحة كبيرة بالألوان المطلوبة للمشروع ، ثم تم تقطيعه إلى مكعبات فى الموقع ، وكان يصنع الزجاج الذهبى بإدخال طبقة أو طبقتين من الذهب بين طبقتين من الزجاج ، كما تم وضع اللون الأخضر فى الزخرفة الورقية فى حوالي ٥ ألوان مختلفة من قطع الزجاج (Rapp- 2015- p30) ، والتى تم استخدامها أيضًا فى الخلفيات وفى شخصيات مثل "توما" ، فى الصورة السابقة يمكننا أن نرى كيف يتناغم اللون الأخضر بشكل كبير مع الظلال الوردية للشخصيات البشرية .

فى الأصل كانت هناك فسيفساء للعذراء والطفل فى الحنية التى شوهدت وهي تنفصل عن الجدار فى عام ١٤٩٠م ، ومن المحتمل أن تكون قد تضررت فى زلزال شديد ضرب "بيت لحم" قبل حوالى ٤٠ عامًا ، على جانبى العذراء كانت هناك صور لـ"داود" و"إبراهيم" ، كان هناك بشارة في قوس الحنية وهى مفقودة الآن أيضًا (Alessandri- 2020-35)، وتشير مصادر إلى أن الكنيسة كانت تحت إدارة رجال دين لاتينيين شاركوا فى تدقيق الرسائل والموضوعات والنقوش للتأكد من أنها لا تتعارض مع الأيديولوجية الكاثوليكية ، إلى أن تم إعادة قبول الشرائع اليونانية مؤخرًا فى "كنيسة القيامة" عام ١١٦٦م ، ليكون ذلك دليلا على تحسن العلاقات بين رجال الدين اليونانيين واللاتينيين فى مزارات الأرض المقدسة .(Bacci- 2017-p65)

خاتمة:

وبعد.. فقد أورد البحث محاور تتعلق بتاريخ "كنيسة المهد" كواحدة من أعرق الكنائس على مستوى العالم ، مستعرضا نماذج من أعمال التصوير الجدارى الذى تذخر به الكنيسة ، وعبر تحليل أهم القيم التشكيلية فى العناصر الزخرفية والشخوص وقف الباحث على عدة نقاط تتعلق بنضج الأسلوب وتفرد المعالجات ، كما وقف الباحث على أبرز إنجازات أعمال الترميم وإعادة إحياء الأعمال الجدارية داخل الكنيسة قديما وحديثا ، مع إيضاح لمحات تاريخية تتعلق بتقنية الفسيفساء وتصنيع الأحجار الزجاجية وعلاقة كل هذا بالظروف البيئية والاقتصادية داخل وخارج مدينة "بيت لحم" ، كل ذلك فى سبيل الوقوف على القيمة التاريخية والجمالية المتفردة للكنيسة وتراثها الفنى.

نتائج البحث :

١- "كنيسة القيامة" فى مدينة "بيت لحم" هى واحدة من أكثر الكنائس التى عكست أعمالها التصوير الجدارى بها نضجا وتنوعا فى المعالجات التشكيلية والفنية.

٢- تعد التصاوير الجدارية فى "كنيسة المهد" مصدر إلهام للعديد من الأعمال الفنية فى كنائس أوروبا بما حوت من زخارف ورسوم تجريدية وتشخيصية لعناصر الطبيعة والعمارة والأجساد البشرية.

٣- تكشف الكثير من المعالجات التشكيلية لملامح وتعبيرات الشخوص عن تحرر الفنان المنفذ وتمرده على الكثير من التقاليد النمطية التى ميزت فنون العصور الوسطى فيما يتعلق بتناول الجسم الإنسانى.

٤- أضافت أعمال الترميم فى العصر الحديث قيما جمالية للفسيفساء الموجودة بالكنيسة ، علاوة على إحيائها للعديد من اللوحات التى كانت قد انطمست نتيجة لوقائع صراعات وحروب ومظاهر للتطرف الدينى.

٥- هناك مؤثرات واضحة انتقلت من فسيفساء "كنيسة المهد" تجسدت بشكل واضح فى بعض نماذج العمارة الإسلامية البارزة على نحو ما ظهر فى "الجامع الكبير" فى دمشق خلال عصر الخلافة الأموية.

٦- لم تحل الظروف البيئية والجغرافية دون تطور التقنية المستخدمة فى فسيفساء "كنيسة المهد" فى "بيت لحم" ، وذلك مع الدعم الواسع والبارز للإدارة السياسية داخل الإمبراطورية البيزنطية ، حتى شهدت الكنيسة تطورا فى صناعة الأحجار الزجاجية بألوانها المتنوعة.

٧- كشفت الدراسات المصاحبة لأعمال الترميم عن الكثير من الأعمال الجدارية التى فقدت خلال أحداث متباينة ، وعلى الرغم من عدم القدرة على استعادتها إلا أن المصادر إشارت إلى كثير مما كانت تحويه هذه الجداريات.

وفى سبيل ذلك يوصى الباحث بمواصلة البحث المتعمق حول هذه الآثار المعمارية ، والوقوف بالدراسات التحليلية المنهجية على أهم الأعمال الفنية التى تحويها ، ومحاولة إيجاد الروابط والمؤثرات المتبادلة بينها وبين الآثار المناظرة فى بقاع أخرى من العالم ، الأمر الذى من شأنه إعلاء القيمة التراثية والفنية لهذه الآثار ، وفتح أعين

العالم على مكانتها الدينية ، وإزالة الرواسب المتعلقة بوقائع الصراعات الدينية القديمة ، مع ضرورة إجراء الفحوص المعملية اللازمة للأعمال الفنية الجدارية باعتبارها جزءا هاما (ولا يمكن فصله) من الأثر المعمارى وخاماتها وأساليب التلوين وتقنيات الترصيع والتثبيت وعلاقة كل ذلك بالنسق المعمارى الذى تنتمى إليه الأعمال الفنية ، وذلك فى سبيل تشكيل رؤية شاملة حول كيفية إعادة إحياء ما تهدم أو ما فُقد منها ، وإبراز دورها فى التوثيق وحفظ الحقائق التاريخية.

مراجع البحث :

1- Alessandri, Claudio, (2020), *The Restoration of the Nativity Church in Bethlehem*, Boca Raton.

2- Anderson, Jeffrey C,(1982), *The Seraglio Octateuch and the Kokkinobaphos Master*, Dumbarton Oaks Papers, 36, Dumbarton Oaks: 83–114.

3- Bacci, Michele, (2017), *The Mystic Cave. A History of the Nativity Church in Bethlehem*, Wayback Machine. Rome-Brno, Viella..

4- Cohen, Raymond, (2011), *Conflict and Neglect: Between Ruin and Preservation at the Church of the Nativity*, Routledge.

5- Jerome Murphy-O'Connor, (2008), *The Holy Land: An Oxford Archaeological Guide from Earliest Times to 1700*, Oxford Archaeological Guides. Oxford: Oxford University Press.

6- Kohen, Elli, (2007), *History of the Byzantine Jews: A Microcosmos in the Thousand Year Empire*, University Press of America..

7- Kühnel, Bianca e Gustav, (2019), *The Church of the Nativity in Bethlehem, The Crusader Lining of an Early Christian Basilica*, Regensburg.

8- Madden, A. M, (2012), *A Revised Date for the Mosaic Pavements of the Church of the Nativity, Bethlehem*, Ancient West and East.

9- Rapp, David, (2015), *The Church of the Nativity in Bethlehem*, Apogee.

10- Roth, Leland M, (1993), *Understanding Architecture: Its Elements, History and Meaning* (First ed), Boulder, CO: Westview Press.

مصادر الأشكال:

1- https://purpurpurpur.co.uk/travel/middle-east/bethlehem-special-edition-for-the-orthodox-christmas/ [تاريخ الزيارة١١ /١٠/ ٢٠٢٤]

2- https://purpurpurpur.co.uk/travel/middle-east/bethlehem-special-edition-for-the-orthodox-christmas/[تاريخ الزيارة١٤ /١٠/ ٢٠٢٤]

3- https://socratesjourney.org/88-bethlehem-and-the-church-of-the-nativity/[تاريخ الزيارة١٠ /١٠/ ٢٠٢٤]

4- https://tinaboesch.com/2015/10/31/a-picture-of-orthodoxy/[تاريخ الزيارة١٥ /١٠/ ٢٠٢٤]

5- https://www.alamy.com/church-of-the-nativity-4th-c-plan-ca-333-ce-bethlehem-image260369179.html[تاريخ الزيارة١١ /١٠/ ٢٠٢٤]

6- https://www.alamy.com/stock-photo/church-of-nativity-mosaics.html?sortBy=relevant

[تاريخ الزيارة١٥ /١٠/ ٢٠٢٤]

7- https://www.meisterdrucke.ie/fine-art-prints/Italian-School/1093709/Archangel,-detail-from-Pala-d%27oro,-high-altar-retable-in-St-Mark%27s-Basilica,-Venice.html [تاريخ الزيارة١١ /١٠/ ٢٠٢٤]

8- https://www.pallasweb.com/deesis/mosaics-in-the-church-of-the-nativity-in-bethlehem.html [تاريخ الزيارة١١ /١٠/ ٢٠٢٤]

9- https://www.pallasweb.com/deesis/family-gospel-of-john-ii-komnenos.html [تاريخ الزيارة١٢ /١٠/ ٢٠٢٤]

10- https://www.pallasweb.com/deesis/church-of-mary-of-the-blachernae.html [تاريخ الزيارة١٢ /١٠/ ٢٠٢٤]

11- https://www.pallasweb.com/deesis/christ-pantokrators-of-ravenna.html [تاريخ الزيارة١١ /١٠/ ٢٠٢٤]

12- https://www.yiscaharani.com/post/mosaics-church-of-nativity[تاريخ الزيارة١٢ /١٠/ ٢٠٢٤]